

أرمين شوبن، القات : تاريخ واستعمال المكيف في الجمهورية العربية اليمنية (فيز بادن: ١٩٧٨)

Armin Schopen, *Das Qat: Geschichte und Gebrauch des Genussmittels Catha Edulis Forsk. in der arabischen Republik Jemen* (Franz Steiner Verlag, Wiesbaden 1978)

د. حيدر ابراهيم علي *

يقع الكتاب في ٢٧٩ صفحة بما في ذلك الملاحق وهو اساسا رسالة دكتوراة في الاثنوغرافيا لجامعة فرانكفورت بالمانيا الاتحادية. وقد اعتمدت مادة الكتاب على بحث ميداني امتد لثمانية شهور (اغسطس ١٩٧٤ - مارس ١٩٧٥) اقام خلالها المؤلف في صنعاء كما زار مدناً أخرى في اليمن. ويحتوي الكتاب على ستة فصول، وملاحق لقصائد ورسائل عن القات باللغتين الألمانية والعربية، ومجموعة من الصور:

يصف المؤلف في الفصل الاول جغرافية اليمن ثم يدخل من خلالها في الفصل الثاني للاقتصاد اليمني رابطا بين التقسيمات والتكوينات الجغرافية وبين مقومات الاقتصاد. فالمرتفعات والسهول مناطق صالحة للزراعة خاصة باستعمال المدرجات وتطوير الري الصناعي. ولليمن في مجال السدود تاريخ وتقاليد كسد مأرب الذي شيد في القرن الثامن قبل الميلاد وانهار بين عامي ٥٤٢ - ٥٧٠ ميلادية ويعتبر اقدم سد في التاريخ. (١)

يهتم المؤلف بإمكانية اليمن الاقتصادية ذاكراً ان مساحة اليمن هي ٢٠ مليون هكتار المستثمر منها فعليا حوالي ٧,٥٨٪ اي ١,٥١٥ مليون هكتار والممكن استغلاله فعليا ١٠٪ اي حوالي ٢ مليون هكتار. ويعطي المؤلف جداول واحصاءات للأراضي المزروعة حسب توزيع المحافظات وطرق الري المستعملة، وللانتاج الزراعي عام ١٩٧٤/٧٣. ثم يشير الكاتب لموضوع بحثه اذ يأتي القات كمحصول في المرتبة الثانية بعد الحبوب مباشرة. واذا أسقطنا مساحة الأراضي المزروعة بالحبوب سوف يحتل القات ٤٥٪ من الأراضي الصالحة للزراعة (ص ٢٨). ويختم المؤلف الفصل الثاني باعطاء لمحة عن نظام الملكية وبالذات الخاصة، في اليمن.

خصص المؤلف الفصل الثالث للسكان حيث يقسم الست ملايين نسمة حسب الانتماء الطائفي والتراتب الاجتماعي ويخلص المؤلف الى ان المجتمع في اليمن، نتيجة للانغلاق والعزلة الطويلة التي عاشها ولم يعرف هجرات الى داخله بل العكس الى الخارج، اخذ شكلا سكونيا ثابتا لحد ما. ويمكن تقسيمه حسب معطيات ومجموعات دينية واجتماعية واضحة محددة. والحركة الاجتماعية

* استاذ مساعد الاجتماع بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

ضعيفة نتيجة لشدة قبضة الحكم الزيدي السابق ورفضه لكل التأثيرات الخارجية، وقوة النظام السياسي. الثيوقراطي (الديني) الذي اخذ شكلاً جامداً نسبياً مكن من استمرارية التقاليد والمؤسسات العتيقة وكرس انعزال فئات كبيرة وسيطرة فئة قليلة عليها.

وحسب العقيدة او الطائفة الدينية يعتبر المجتمع اليمني مجتمعاً اسلامياً خالصاً عدا أقلية يهودية كانت في صعدة وغادرت اليمن عام ١٩٥٠. وبالتالي ينقسم المجتمع الى زيود ومنهم الاسرة الحاكمة حتى ١٩٦٢ و يبلغون ٤٤٪ من السكان، ثم الشافعية ويمثلون ٤٥٪، والبقية اسماعيلية. (٢)

اما الفئات الاجتماعية فهي ست مجموعات حيث تأخذ اعلى فئة (السادة) وادنى فئة (الاخدام) طابع الفئة المغلقة. والسادة هم الارستقراطية الدينية التي ترجع نسبها لابناء علي بن ابي طالب، وكانت الامامة مقصورة عليها ومازال افرادها يحتلون المناصب العليا فمنهم كبار ملاك الاراضي وغالبية العلماء والقضاة كذلك الاكاديميون والخريجون. ويعتبرون هؤلاء انفسهم حماة التقاليد والشرعية ومكانتهم الاجتماعية – السياسية تتناسب طردياً مع علاقة الناس بالدين. وهم يمثلون العنصر المحافظ تجاه العامة ولكن ثرواتهم تمكنهم من حياة حرة يتмнаها العامة، لذلك ليس من المستغرب ان يتقمص العامة سلوك السادة في جلسات القات.

يأتي بعد ذلك القبائلون ثم الفلاحون ويمثلون ٨٠٪ ثم سكان المدن او «اهل السوق». وفي اسفل الهرم الاجتماعي يأتي الاخدام وهم سمر البشرة من اصل اثيوبي جاءوا الى اليمن منذ القرن السادس ولا يحق لهم امتلاك الاراضي او العمل عليها ولا ممارسة الصناعة والعمل اليدوي لذلك يعملون كحمالين وعمال موانئ وطرق، ومنهم احياناً راقصون ومغنون. ويسكن هؤلاء جميعاً في منازل التتاك او عشش منفصلة خارج المناطق السكنية.

في الفصل الرابع، يبدأ المؤلف معالجة الموضوع الرئيسي بوصف القات ويذكر انه معروف في كل الشاطيء الشرقي لافريقيا من اثيوبيا حتى مدينة الكاب (جنوب افريقيا). وقد ذكر البيروني والسمرقندي وجود القات في تركستان وافغانستان ويظهر انه استبدل بالحشيش (ص ٤٤). ولأول مرة يأتي اسم القات في كتاب لنجيب الدين السمرقندي (المتوفى عام ١١٢٢) واعتبره عقاراً طبياً في اواسط آسيا. ولكن من الصعب اثبات انتقاله من هناك الى شرق افريقيا والراجح انهم توصلوا اليه عن تجربة خاصة وذاتية.

أول مرجع مكتوب عن وجود القات في اثيوبيا عشر عليه في يومية باللغة الحبشية ترجمها ديلمان. ويذكر المقر يزي (١٣٦٤ – ١٤٤٢) في كتابه «الامام باخبار من بارض الحبشه من ملوك الاسلام» ان سكان احدى المناطق (محافظه شوا الحالية)

يزرعون الى جانب قصب السكر نباتا يسمى القات ليس له ثمار ولكن يمضغون اوراقه التي تشبه اوراق صغار اللارنج وهو ينشط الذ اكرة حيث يسترجع الانسان ما نسى و يشعر بالنشوة ولكن يقلل الشهوة للاكل والجنس والنوم. (٣)

يتضح من هذا ان القات كان معروفا منذ فترة قبل هذه الكتابات. ومن اثيوبيا اخذ طريقه الى اليمن، ولكن متى؟ في رواية وجدت طريقها الى الادبيات الاوربية تقول ان ذلك تم خلال الغزو الحبشي (٥٤٠ م). ولكن هذا التاريخ يبدو مبكراً وذلك لعدم ورود ذكره في المصادر العربية لا عند الاصطخري في «المسالك والممالك» (سنة ٩٥٠) ولا ابن حوقل في «صراط الارض» (١٩٧٧) رغم وصفهم لمنطقة تهامه. ولم يذكره المقدسي في «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» (٩٨٨) رغم تجواله في اليمن، ولا الحمداني في وصفه الجزيرة العربية ووطنه اليمن عند ذكره لانواع النباتات في اليمن. (٤)

في رواية اخرى أن أحد الاولياء في زيلع (جنوبي جيبوتي) ويدعى ابراهيم او زار بيتا اتى من حضرموت لنشر الاسلام في اثيوبيا واصبح مدمنا للقات وادخله اليمن عام ١٤٣٠/٢٩ (٥) وعن ورود ذكر القات في هذه الفترة يرجع المؤلف لكتاب الجزيري «عهدة الصفوة في حل القهوة» حيث يقول ان علي بن عمر الشاذلي ادخل استعمال القهوة ومشروبات القات (اي القهوة القاطية أو الكفتا) وانتشرت حتى عدن. (ص ٤٨) ويورد المؤلف ايضا رواية ثالثة عن العمري من سفره «مسالك الابصار في ممالك الامصار» تقول بدخول القات في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر. وفي مخطوطه ابن حجر الهيتمي نقل عن ابن كبان (١٢٧٤ - ١٤٣٨) تزكية للقات - رغم عدم وجود الاصل - فهو لا يسرد تجربة ذاتية مع القات ولكن يذكر روايات شفوية ومكتوبة عن القات وهذا يعني انه يعالج شيئا موجوداً اصلاً قبل هذه الكتابات والروايات.

في الأدبيات المعاصرة يذكر بعض الكتاب شواهد على وجود القات في القرن الثالث عشر. فالشاعر عبد الله البردوني يقول ان ابن علوان من شعراء القرن الثالث عشر استعمل القات كبديل للنبيذ وتركه. (٦) وعند قاسم غالب احمد ان اول المعلومات التاريخية عن انتشار القات اتتنا من شعر الشيخ المصراوي الذي عاش في القرن الثالث عشر وعن استعماله خاصة عند العلماء والصوفية. (٧) ومع ان بعض الرحالة كابن بطوطة وابن المجاور. في رحلاتهم لليمن، لم يذكروا النبات واستعماله ولكن هذا لا يتناقض مع المعلومات السابقة لان القات كان مقصوراً على الصوفية والعلماء ولم ينتشر بين العامة حتى يعرفه او يصادفه الرحالة والكتاب كظاهرة عامة.

خلاصة القول أن معرفة القات في اليمن تمت بعد اسلام المرتفعات الحبشية في النصف الاول من القرن ١٣. ويرى المؤلف ان المبشرين المسلمين عمموا تجربة

القات بين اخوانهم في اليمن كنوع من الوصفة السرية لكي يتمكنوا بواسطتها من تخفيف الالتزامات الدينية. ويمكن تفسير ذلك بتحرير الخمر عند المسلمين. وحسب ما أورده البردوني، كان اتباع الصوفية والعلماء هم أول من عرف تأثير القات. وهو عند هم هبة من الله للمتعة ومن خلاله تتكثف التجربة الروحية. وكما يقول احمد العقيل

تشاهد امورا من غريب معارف من الحضرة العليا تأتيك ترفل (ص ٢٤١)

وترتفع مكانة القات عندهم حيث تقرب قوته الكامنة من الله. وتقول اسطورة ان الخضر اتي بالقات من جبل قاف واعطاه لذي القرنين (الاسكندر) قوتا لا تقياء اليمن ولذ لك قصر على الاتقياء (ص ٥٢). ويتسفيد المؤلف من الشعر كثيرا في هذا الموقع لاثبات حقائق اجتماعية مثل حصر القات بين السادة لقربهم من الله وابعاد العامة. وهذا يدعمه سبب اقتصادي جعل الاغنياء هم اكثر المستمتعين بالقات لقلة كمياته وارتفاع تكلفته. ويعقد المؤلف مقارنة بين اسعار القات والاجور نقلا عن قانون صنعاء للصباغي الصادر في القرن الماضي.

ومع تدهور الاقبال على شراء البن اليمني بسبب قيام مناطق جديدة بزراعة البن لكي يكفي حاجة السوق الاوربية، يضاف لذ لك اسباب محلية كاحتكار البن على يد الشريف ابن عريش ثم مجيء الاحتلال العثماني، كل هذا تسبب في تقلص زراعة البن وازدادت زراعة القات الذي ينمو في نفس مناخ البن مع عدم حاجته لعناية اكثر واهتمام مثل البن. ونتيجة لانتشار القات، اصبح في مقدور المواطن العادي الحصول عليه، ولكن هذا لم يقلل امتيازات الاغنياء بحصولهم دوماً على الانواع الجيدة. ومع اختلاف الاهداف، كما يقول المؤلف - فالطبقات العليا تتعاطاه للاستمتاع والبهجة ولكن العامة تستعمله بقصد ان ينشطهم للقيام بالاعمال الصعبة بطريقة احسن. وحسب تقدير المؤلف يتعاطى القات ما لا يقل عن ٩٠ - ٩٥% من الناس هناك (ص ٦٠).

وفي الصفحات التالية، يعطي الكاتب وصفاً لزراعة القات وانواعه وتسمياته وطرق زراعته واحسن الاوقات لذ لك وقطفه وحزمه واسعاره المختلفة التي تعتمد على دخول المشترين وبالتالي لكل فئة اجتماعية مستوى معين من القات. اما في الجزء الخاص باستعمال القات فيقرر الكاتب ان طرق استعماله مختلفة وتعتمد على الظروف المحيطة، لكن اكثرها انتشاراً هو مضغ القات. وهناك من يستعمله مغلياً كالشاي أو مهدئات للمعدة ولل علاج عامة. ويورد المؤلف كذ لك خصائص القات الكيميائية والطبية. اما آثاره فتعتمد على الكمية والنوع والاستمرارية. فالكميات القليلة، وفي فترات متقطعة، قد تسبب نوعاً من النشوة والابتهاج والانطلاق في الحديث دون خجل ورغبة في الجنس والعمل وتقل معه

الحاجة للنوم والطعام غير ان الكميات الكبيرة و بطريقة منتظمة تسبب آثارا واعراضا معاكسة تماماً مثل النرفزة وعدم النوم والتهويم الخيالي وعدم القدرة على العمل وتسبب نوعاً من التبدل والخمول الذهني. اما عضويا فالقات هنا يرفع ضغط الدم والقلب ويضر بالرئة. ومن وجهة النظر اليمينية، يمر الشخص بعد التناول بمراحل عدة مثل التنبيه ثم التراخي ثم مرحلة القلق النفسي ويتميز بالصمت والوجوم والشروذ الذهني واخيراً يأتي رد الفعل ويصاب الشخص بصداغ وارهاق الاعصاب والخمول.

في الباب الخامس، ينقلنا المؤلف بطريقة شاعرية الى اجواء القات حين يصف جلسات القات بتفاصيل دقيقة وملاحظة حادة لا يفلت منها طرف متعلق بالجلسة او تكوين المشاركين وشكل الجلسة وطريقة ومكان الجلوس والتناول ويصف مواقيت و اخلاقيات واتيكيات وتوقعات جلسة القات. ويذكر المؤلف ان شتى الموضوعات تناقش في الجلسة. والذي يجلس في المقدمة يدير الجلسة. وقد اعلمه احد مخبريه ان انقلابي ١٩٤٨ و ١٩٦١ خطط لهما بهذه الطريقة. (١٣٨) كذلك تناقش الخلافات ايضا وتشكل لها لجنة للحل و يصدر متصدر الجلسة الحكم. وليس هناك قوانين مسبقة لكل ذلك ولكن الاحداث والمحيط يمكن ان يحددا كل شيء في مجرى الجلسة.

يقدم المؤلف لجلسات القات وفقاً لمقولات التحليل النفسي ويعتبر ان الجلسة تعني لكل واحد نوعاً من النكوص. وهو موقف تجذيري يمكن الشخص من اطلاق الأنما من قيودها حيث يتحلل الشعور بالآخرين ومما قد يفرضونه من ضبط على الفرد، وتتداخل الرؤى وينهدم الاحساس بالواقع الذي يتبدل بالاحلام والرغبات، وتسقط الحواجز بين الفرد والآخرين، ويظهر شعور بالتوحد يعقبه في نهاية الجلسة شعور بانعدام الامن. ثم ان اساس الجلسات هو التناول الجماعي - القبيلة، والاتصال بالآخرين والارتباط بعلاقات انسانية متبادلة مما يقوى تأثير الجماعة لان العلاقة تتجدد عن كل لقاء وتصبح حميمة وملزمة.

وعلى صعيد آخر يعرض الكاتب المناقشات حول القات ويذكر انها كانت في البداية دينية بحته حول كون القات حلالاً ام حراماً. ثم يورد بعض آراء الفقهاء ويقسمهم الى فئتين احدهما رأت ان القات ليس مضرأ وبالتالي يعتبر حلالاً والاخرى رأت العكس. ويصل المؤلف في تتبعه لهذه المسألة الى ان الفئة الاولى انتصرت في القرن السابع عشر واعتبر القات ليس حراماً. وفي فترات لاحقة نوقش القات حسب الاضرار الاقتصادية والصحية والاجتماعية وبالذات تجد حلا حاسماً للمشكلة ولكنها فشلت في ذلك.

ويختتم المؤلف كتابه بالقول ان ثورة ١٩٦١ جعلت اليمن يتصل بالحضارة العالمية ومنجزاتها وبالتالي حدث تغير مس كبيراً من جوانب الحياة في اليمن

باستثناء القات لأسباب عدة منها ما هو اقتصادي فالقات يعتبر محصولاً نقدياً مربحاً وبخاصة بعد أن احتكر كبار الملاك زراعته وتسويقه. وهذه الطبقة تؤثر على بقاء القات لقيمتها الاقتصادية لها. كما أن تناول القات انغرس عميقاً في المجتمع اليمني منذ القرن الرابع عشر وأصبح جزءاً من الحياة الثقافية والاجتماعية كما يظهر من جلسات القات ومضمونها الاجتماعي وما يتبعه من إنتاج أدبي أو مناقشات... الخ. أما مسألة ضرر القات أو نفعه فهذا يعتمد على نوعية القات المرتبطة بدورها بالطبقة الاجتماعية.

وأخيراً فإن الكتاب دراسة اجتماعية رائدة بالنسبة للمكتبة الألمانية أن لم يكن الأوروبية عامة. وحتى بالنسبة للدراسات الاجتماعية العربية فهو رائد من ناحية موضوعه وأدوات بحثه. فقد درس المؤلف القات من زاوية أنثروبولوجية وجعل القات بؤرة عمله الأكاديمي وعالج العلاقات الاجتماعية والاقتصادية من خلال صلتها بالقات. وهي ليست دراسة أنثوغرافية - وصفية تقليدية إذ اعتمد الكاتب على الإحصاءات والمقابلات والمشاركة واستفاد من الإنتاج الأدبي كثيراً. ومع ذلك يؤخذ على الكتاب عدم الحاق قائمة بالأبجدية العربية ومقابلها اللاتينية رغم أنه نوه فقط بمراجعته دون أن يورد قائمة بذلك وكان يمكن أن تكون دراسة مقارنة لو أتى بذكر تجربة اليمن الديمقراطي في منع القات وطريقة محاربتة ولكن يبدو أنه قصر دراسته على اليمن الشمالي واعتبر تاريخ الظاهرة مشتركاً.

الحواشي الإيضاحية

(١) Glaser, Reise nach Márib, p.68, (Wien 1413).

تفسير، كتاب رحلة إلى مارب، (فيينا: ١٩١٣)، ص ٦٨.

(٢) Harold Ingrams, The Yemen: Imams, Rulers and Revolution, London, 1963, p.33.

(٣) المقرئ، كتاب الإمام، تحقيق رينك (لين: ١٧٩٠)، ص ١١.

(٤) مرجع المؤلف كتاب «جنوب الجزيرة العربية حسب وصف الحمداني لشبه الجزيرة العربية»

Sudarabien nach al-Hamdani's "Beschreibung der arabischen Halbinsel." Leipzig, 1442

وطبعة عام ١٩٦٦.

(٥) هو أحد أربعة وأربعين ولياً أوردتهم فاجنر:.

Wagner, Ewald: Eine Listed der Heiligen von Harar, in: Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft Bd 123 1973, PP. 269 - 292

(٦) عبدالله البردوني: «القات من ظهوره إلى استعماله» في اليمن الجديد عدد ٣ سنة

١٩٧٢ ص ٤

(٧) غالب أحمد، «القات في أرض القات» في تطور الخدمات الصحية باليمن ٦٢ - ١٩٦٧ (القاهرة:

١٩٧١) ص ٢٤٦ وما يليها.